الفصل الثاني

عهد الازدهار الاول

تعد فترة حكم شابور الثاني من العهود المجيدة في تاريخ الساسانيين. ليست بسبب طول مدتها وانما بسبب احداثها المؤثرة. ولكن في الحقيقة ليست لدينا معلومات محدودة عن الثلاثين سنة الاولى من حكم شابور الثاني. ولكن ماحدث من تركه سنوات عدة تنقضي بعد بلوغه سن الرشد دون التفكير في شن الحرب الانتقامية على الرومان يحملنا على الأعتقاد بأنه كان عليه ان يذلل مصاعب داخل بلاده ويحتمل ان يكون قد وجه جهوده الاولى الى الحد من سلطان الامراء الذين كانوا يلقبون بـ (شاه) وهم الملوك المحليين (٤٢) وابناء اسر الاشراف (٤٣) ذلك السلطان الذي عظم كثيراً ايام الوصاية. فقد كانت تقاليد العهد الاشكاني لاتزال تجري في دماء الاشراف وحينما كان يصدف ان يكون الملك قليل اليقظة فيعني ذلك سهولة القيادة لاطماعهم ولهذا كان يخشى طغيان الارستقراطية والفوضى الاقطاعية (٤٤) ويشير الطبري وغيره من المؤرخين العرب المسلمين الى فطنة شابور وذكاؤه وقدرته على الاصلاح كما يشير الطبري الى معارك شابور ضد القبائل العربية وامتلاكه البحرين والسواحل العربية للخليج العربي (٤٥).

---

(٤٢) وكانوا يسمون (الشهرداران).

(٤٣) وهم الذين يعرفون باسم (الواسبوران).

(٤٤) كرستنسن ـــ ايران ص ٢٢٤، باقر ـــ ايران ص ١٢٩.

(٤٥) الطبري ـــ التاريخ ١ / ٨٣٧. وانظر ايضاً اليعقوبي ـــ التاريخ ١ / ١٤١.

وكان شابور الثاني ملكاً جديراً بأن يخلف اردشير الاول وسابور الاول وبهرام الثاني وقد اطلق عليه الايرانيون لقب (ذي الاكتاف) لان الروايات تقول انه كان في حربه الشديدة مع العرب ينقب اكتاف اسراهم او يعمد على خلعها (٤٦).

واخيراً اعد العدة لقتال روما بعد ان وطد شابور الثاني سلطته في الداخل. وكانت حوادث هامة قد حدثت في الامبراطورية الرومانية منذ مطلع القرن الرابع الميلادي وكان من أبرزها قسطنطين وأنقسام الامبراطورية الرومانية الى قسمين وظهور سمات رومانية شرقية دينها النصرانية وعاصمتها القسطنطينية (إسطنبول الحالية) تعرف باسم الدولة البيزنطية فبرزت بين الدولتين فارس وبيزنطة بالاضافة الى مشاكل الحدود ومطامع الفرثيين للاتساع على حساب الطرف الآخر مشكلة جديدة تمثلت في المسيحيين من رعايا الدولة الساسانية ومما زاد في التهاب هذه المشكلة ان ارمينية الدولة الحدودية بين فارس وبيزنطة تنصرف مع بدايات ظهور الدولة البيزنطينية واصبحت حليفة النصارى الروم مما اثار حفيظة الفرس وتجددت بسببها المعارك الدامية بين الفرس والبيزنطيين (٤٧) وفي هذه المرة تذرع سابور بالمنازعات الداخلية في أرمينية ليبدأ الحرب التي اراد بها استرجاع البلاد التي فقدت بهزائم نرسي. واجتاح ارمينية بغير صعوبة. ويبدو ان من الاسباب الوجيه لنجاح حمله شابور على ارمينية هو ميل الارستقراطية الارمينية الى جانبه في الحرب وذلك لخوفها من الافكار الجديدة التي بشر بها الدين المسيحي ولكن الروم صمدوا بوجه زحف الفرس من خلال قلاعهم الحصينة في الجزيرة وبخاصة في نصيبين واخذت نتائج المعارك تتحول لصالح الروم وبخاصة معركة سنجار حتى بات النصر وشيكاً لولا عظم القوة العسكرية التي حركها شابور لهذه الحرب مما اضطر الروم لطلب المفاوضات (٤٨).

وكان ممكناً للفرس ان يستثمروا النصر ويواصلوا زحفهم في بلاد الروم، لولا اخبار غزو الاقاليم الشرقية للمملكة من قبل قبائل بربرية أسيويه واستقلال سجستان عن الحكم الساساني فوجد شابور في العرض الذي تقدم به الروم لعقد مفاوضات صلح بين الطرفين فرصة ذهبية تتيح له الانصراف بكامل قواه صوب الجبهة الشرقية.

---

(٤٦) اليعقوبي ــ التاريخ ١ / ١٤١، الطبري ــ التاريخ ١ / ٨٣٧، كريستنسن ــ ايران ص ٢٢٤ ــ ٢٢٥.

(٤٧) كرستنسن ــ ايران ص ٢٢٥، باقر ــ ايران ص ١٣٠.

(٤٨) ن. م.

والذي يطلع على نص الرسالتين (٤٩) اللتين تبادلهما شابور مع ملك الروم بخصوص مفاوضات الصلح والشروط المبينة التي طلبها الجانب الفارس ورفضها الروم يتأكد بأن الفرس لم يكونوا مخلصين في ايقاف الحرب وانما أرادوا امهال انفسهم الفرصة الكافية لتطمين اوضاعهم الداخلية قبل العودة ثانية الى قتال الروم (٥٠).

وهذا ماحدث فعلاً، فلم تصل مفاوضات الصلح الى نتيجة فاستغلها الفرس ذريعة لبد الهجوم فكان ذلك بدأ على قلعة آمد (ديار بكر الحالية) واستولى عليها بعد دفاع مجيد وذلك سنة ٣٥٩ م ومن الجدير بالذكر ان العرب وشعوب ارمينية المسيحية قد مالت الى جانب الروم. وهنا وجد العرب في هذه الحرب الفرصة المؤاتية للاخذ بثأرهم من شابور الثاني وجنده لذلك نجح الروم من تسجيل انتصارات كبيرة شارفوا عل اثرها المدائن العاصمة، مما اضطر شابور للاستنجاد بكافة اقاليمه فتجمع عنده جيش ايراني كبير نجح من خلاله ان يدافع عن العاصمة. وقد قتل الامبراطور الروماني جوليان سنة ٣٦٣ م في المعارك التي تلاحقت مما سبب في رجحان كفة الفرس، فاضطر الامبراطور الجديد جوفيان لطلب الصلح وقد عادت الجيوش الرومانية الى ماوراء الحدود. وكسب الايرانيون في الصلح الذي تم عاجلاً لمدى ثلاثين عاماً نصيبين وسنجار والمقاطعات المتنازع عليها في أرمينية (٥١). لكن اوضاع ارمينية لم تستقر واستمرت بتشجيع من بيزنطة تثير قلق الدولة الساسانية مما اضطر الفرس لاحتلالها كاملة واخضاعها مباشرة الى السلطة المركزية الايرانية وذلك بتعيين مرزبان فارسي عليها.

لقد تحولت مشكلة مسيحي ايران بمرور الزمن الى مشكلة سياسية كبيرة بين فارس وبيزنطة وأخذ الاضطهاد يتفاقم ضدهم ابتداءاً من عهد شابور الثاني وحتى أواخر عهد الدولة الساسانية وكانت سبب ذلك كما اشرنا قليلاً في حديثنا عن أرمينية هو تنصر الدولة الرومية الشرقية (البيزنطينية) فلم يستطع اكثر الملوك الايرانيين اعتدالاً اخذ مسألة مواطنيهم من المسيحيين دون اكتراث (٥٢) شيد شابور كغيره من ملوك آل ساسان عدداً من المدن تخليداً لذكراه، فقد كانت احداها قد

---

(٤٩) لقد اورد كرستنسن نص الرسالتين ويمكن التعرف على معانيها في تاريخ ايران ص ٢٢٦ ــ ٢٢٧.

(٥٠) بيكر ــ ايران ص ١٣٠ ــ ١٣١.

(٥١) كرستنسن ــ ايران ص ٢١٦ ــ ٢١٧، وبيكر ــ ايران ص ١٣١.

(٥٢) بيكر ــ ايران ص ١٣١، كرستنسن ــ ايران ص ٢٣٧.

بنيت على انقاض مدينة السوس القديمة وسماها (ايرانشهر ــ شابور) (٥٣) ان عهد شابور الثاني لم يكن مشرقاً كما كانت تعكسه انتصاراته العسكرية لان قوة الجيش وقدرته العسكرية العالية التي وضحت من كثرة الحروب التي خاضها مظفراً كلفت الدولة كثيراً، ولعل من أوضح المظاهر التي نجمت عن سياسة هذا الملك العسكرية وانحرافه في الحروب تتمثل في ضعف السلطة المركزية، يقابلها قوة النبلاء وحكام الولايات الذين قويت مراكزهم المحلية اثراً انصراف الملك عن شؤون الادارة والامور الداخلية، كما تحملت الخزينة بحجم يزيد عن طاقتها من اعباء نفقات الحروب الباهضة وقد انعكس اثر ذلك واضحاً على عهد خلفاء شابور (٥٤).

توفي شابور الثاني عام ٣٧٩ م وخلفه على عرش الدولة الساسانية اخوه اردشير الثاني (٣٧٩ ــ ٣٨٣ م) وابناء شابور الثاني وهم شابور الثالث (٣٨٣ ــ ٣٨٨ م) وبهرام الرابع (٣٨٨ ــ ٣٩٩ م). لقد كانت عهود هؤلاء الملوك قصيرة لم تكن لها تأثيرات بارزة في تاريخ ايران. كما كانوا ملوكاً ضعفاء استعاد عظماء الدولة في عهودهم مافقدوه من الارض ايام شابور الاكبر. وقد عزل العظماء اردشير الثاني وذاق الأخوان عنيف الموت. وقد انعكس هذا الواقع المتردي لاوضاع السلطة المركزية في ايران على واقع علاقاتها بمنافستها وعدوتها اللدودة الدولة البيزنطينية. وهكذا نجد ان السنوات الاولى من حكم بهرام الرابع قد شهدت اقتسام ايران وروما ملك ارمينية فدخل قسمها الشرقي وهو اكبرها تحت حماية ايران، وخضع القسم الغربي لحماية الرومان (٥٥).

تمدنا بعض المصادر القليلة بالمعلومات التي تؤكد ميل رجال الدين الى جانب الإمراء والنبلاء في صراعهم مع الملك وقد خسر الملوك الساسانيون نتيجة هذا الصراع حقهم في تثبيت ورثة العرش من بعدهم بينما آل هذا الامر الخطير الى الامراء

---

(٥٣) كريستنسن ــ ايران ص ٢٢٩.

(٥٤) لقد استمرت الحرب بين شابور الثاني والروم حوالي اربعين سنة وقد حفظت لنا الكتب الرومية رواية حية سجلها رجل ساهم في اعمال الحرب وكان شاهد عيان في كثير من الحوادث وهو (أمين مارسلن) الضابط الروماني من اصل يوناني. انظر / كرستنسن ايران ص ٢٢٩ وكذلك باقر ــ ايران ص ١٣١. ولم يتوان هذا الضابط ان يسجل ملاحظاته عن بعض مزايا شابور الثاني وصفاته.

(٥٥) كرستنسن ــ ايران ص ٢٤١.

ورجال الدين. فأصبح تلاعبهم بمقدرات الدولة بقتل هذا الملك او عزل آخر وبديله كلما اظهر احد الملوك ميلاً للانتقاص من مكانتهم (٥٦).

تسلم السلطة بعد بهرام الرابع عام ٣٩٩ م الملك يزدجرد الاول الذي استمر حكمه الى سنة ٤٢١ م حيث دخلت العلاقات المسيحية الزردشتية في مرحلة جديدة وحيث شهدت ايران تحولاً واضحاً في سياستها اتجاه المسيحيين عا. عهده حيث اراد تخفيف حدة الصراع والانشقاق الداخلي فحاول اعتماد سياسة المساواة بين معتنقي الديانتين المسيحية والزرادشتية فسمح للمسيحيين بحرية العمل والتبشير واقامة شعائرهم الدينية واعادة بناء كنائسهم المخربة واطلاق سراح من سجن منهم بسبب عقيدته الدينية، وعقد مسيحيوا ايران في عهده مجمعاً دينياً لتوحيد كنيستهم والعمل بموجب المذهب المعمول به في الكنيسة البيزنطينية، ويبدو أن يزدجرد قصد من وراء هذه الخطوات تقريب وجهات النظر بين الدولتين الفارسية والبيزنطينية (٥٧).

وعلى الرغم من حيرة المؤرخ امام هذا التحول في سلوك ساساني زرادشتي الذي بلغ من امر عطفه ورعايته للمسيحيين ان لقبته المصادر المسيحية بالملك النصراني. بينما نال بسبب موقفه ذلك غضب وحقد الزرادشتية حيث انعكس ذلك واضحاً في كتابات المؤرخين الساسانيين حيث وصف بالمخادع الاثيم، ولكن يبدو ان يزدجرد كان يقصد من وراء ذلك تلطيف الاجواء مع البيزنطينيين ليتفرغ لشؤون الدولة الداخلية التي افسدها الامراء ومعهم رجال الدين الزرادشتين فكان انعطافه للمسيحيين مقصوداً لخلق قاعدة مؤيدة يستند اليها في حربه ضد العظماء ورجال الدين الزرادشتين لاجل تقليص دائرة نفوذهم على الدولة والملك (٥٨).

لكن يبدو ان التسامح في مسائل الدين كان ظاهرة طبيعية في خلق يزدجرد فقد كان متسامحاً كذلك مع اليهود والذين لم يكن لهم شأن سياسي، بل تزوج هو من يهودية هي ابنة رأس الجالوت (٥٩) وان كان يزدجرد قد غير سياسته

---

(٥٦) باقر — ايران ص ١٣٢.

(٥٧) باقر — ايران ص ١١٣.

(٥٨) ن. م. وانظر كرستنسن — ايران ص ٢٥٨.

(٥٩) الطبري — التاريخ ١ / ٨٥٥. كرستنسن — ايران. ص ٢٥٨.

مع النصارى في اواخر حكمه فأن هذا كان بخطأ هؤلاء ذلك انهم اساؤوا استخدام الحرية التي منحهم اياها يزدجرد ولم يدركوا النوايا الخفية لسلوك هذا الملك فأرتكبوا افعالاً تحدوا بها الشعور الديني الزرادشتي وعلى الرغم من موقف يزدجرد الاخير فانه مات بشكل غامض مما يرجح احتمال اغتياله على يد خصومه الاشراف وربما تم ذلك بتحريض رجال الدين الزرادشتي (٦٠) وقد ترك يزدجرد من بعده ثلاثة ابناء هم شابور وبهرام ونرسي. وكان يزدجرد قد اقام سابور ملكاً على قسم ارمينية الخاضع لايران، وكان بهرام يقيم عند ملك الحيرة المنذر بن النعمان، حيث كانت الحيرة وقتها مواليه للفرس الساسانيين. ويقول الطبري ان بهرام قد ارسل صغيراً الى الحيرة لتربيته وحضانته وانه لم يتأدب بأدب العجم وانما ادبه ادب العرب وخلقه كخلقهم (٦١) ولكن هذه الاقامة الطويلة في الحيرة يبدو انها كانت نفياً على الأرجح. ويفسر ذلك ماكان من الاختلاف بين يزدجرد وولده الصغير، ومن المؤكد ان بهرام كان يعيش في قصر الخورنق بالحيرة وهو القصر الذي ينسب بناءه الى النعمان اللخمي (٦٢).

اما الابن الثالث نرسي الذي ولد من المرأة اليهودية فيحتمل انه كان قاصراً عند وفاة ابيه في حين كان بهرام لم يتجاوز العشرين من عمره (٦٣).

ولكن الاشراف ورجال الدين قد تخلصوا من ملك غير موفق ارادوا انتهاز الفرصة لكي يوطدوا جاههم فتألفت جماعة من الاشراف لكي يبعدوا ابناء يزدجرد جميعاً عن وراثه العرش. وقد ذكر الدينوري بعض من هؤلاء الجماعة (٦٤) وقد سارع سابور ملك ارمينة الى المدائن ليضمن العرش ولكن العظماء قتلوه ونصبوا اميراً اسمه كسرى ملكاً وهو من فرع بعيد عن الاسرة الساسانية (٦٥) الا ان الامير بهرام لم ينتظر ان يهزم بغير معركة وقد امده ربيبه امداداً مجدياً. ويقول المؤرخون العرب ان ملك الحيرة المنذر بن النعمان قد سار على رأس فرقتين من الفرسان وهذه القوة كان المنذر قد احسن امدادها فوضعها تحت قيادة ابنه النعمان، فتقدم نحو المدائن فارتاع

---

(٦٠) كرستنسن ــ ايران ص ٢٥٩، باقر ــ ايران ص ١٣٣.

(٦١) تاريخ الرسل والملوك ١ / ٨٥٥ ــ ٨٥٨ وانظر ــ كرستنسن ايران ص ٢٦٠.

(٦٢) الطبري ــ التاريخ ١ / ٨٥٨.

(٦٣) كرستنسن ــ ايران ص ٢٦٠.

(٦٤) الاخبار الطوال ص ٥٩.

(٦٥) الطبري ــ التاريخ ١ / ٨٥٨، كرستنسن ــ ايران ص ٢٦١.